

تفسير ابن كثير

وَإِلَيْهِ ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتُكُمْ بِيَوْمَةٍ
مِنْ رَبِّكُمْ هُذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

قال علماء التفسير والنسب : ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عاثر ، وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، وكانت ثمود بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله ، وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قراهم ومساكنهم ، وهو ذاذهب إلى تبوك سنة تسع . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا صخر بن جويرية ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود ، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود ، فعجبوا منها ونصبوا منها القدور . فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب

منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : "إني أخى أن يصييكم

مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم "وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا عبد

العزيز بن مسلم ، حدثنا عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر : "لا تدخلوا على هؤلاء المعدبين إلا أن تكونوا باكين ،

فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم أن يصييكم مثل ما أصابهم "وأصل هذا الحديث

مخرج في الصحيحين من غير وجهه قال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا يزيد بن هارون ،

أخبرنا المسعودي ، عن إسماعيل بن أوسط ، عن محمد بن أبي كبشة الأنماري ، عن

أبيه قال : لما كان في غزوة تبوك ، تسارع الناس إلى أهل الحجر ، يدخلون عليهم ، فبلغ

ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى في الناس : "الصلاحة جامعة" . قال : فأتيت

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بغيره وهو يقول : "ما تدخلون على قوم غضب

الله عليهم" ؟ فاداه رجل منهم : نعجب منهم يا رسول الله . قال : "أفلأنبيئكم بأعجب

من ذلك : رجل من أنفسكم ينتئكم بما كان قبلكم ، وبما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا

وسدوا ، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً "لم

يخرجه أحد من أصحاب السنن وأبو كبشة اسمه : عمر بن سعد ، ويقال : عامر بن سعد ،
والله أعلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق : حدثنا معمر ، عن عبد الله بن عثمان
بن خثيم ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر
قال : " لا تسألو الآيات ، فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج ،
وتصدر من هذا الفج ، فعtoo عن أمر ربهم فعوروها ، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون
لبناها يوماً ، فعوروها ، فأخذتهم صيحة ، أهمل الله من تحت أديم السماء منهم ، إلا
رجل واحداً كان في حرم الله " . فقالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال : " أبو رغال . فلما
خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه " وهذا الحديث ليس في شيء من الكتب الستة ، وهو
على شرط مسلم . قوله تعالى : (وإلى ثمود أخاهم صالح) أي : ولقد أرسلنا إلى قبيلة
ثمود أخاهم صالح ، (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) جميع الرسل يدعون
إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا
نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [الأنبياء : 25] وقال [تعالى] (ولقد بعثنا في كل
أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [النحل : 36] . قوله : (قد جاءتكم بينة

من ربكم هذه ناقة الله لكم آية) أَيْ : قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم

بـ . و كانوا هم الذين سألوا صالحـاً أـن يـأـتـهـمـ بـآـيـةـ ، و اـقـتـرـحـواـ عـلـيـهـ أـن تـخـرـجـ لـهـمـ مـنـ صـخـرـةـ

صـماءـ عـيـنـهـاـ بـأـنـفـسـهـمـ ، وـهـيـ صـخـرـةـ مـنـفـرـدـةـ فـيـ نـاحـيـةـ الـحـجـرـ ، يـقـالـ لـهـاـ : الكـاتـبـةـ ، فـطـلـبـوـاـ

مـنـهـ أـنـ يـخـرـجـ لـهـمـ مـنـهـاـ نـاقـةـ عـشـرـاءـ تـمـخـضـ ، فـأـخـذـ عـلـيـهـمـ صـالـحـ الـعـهـودـ وـالـمـوـاـثـيقـ لـئـنـ

أـجـابـهـمـ اللـهـ إـلـىـ سـؤـالـهـمـ وـأـجـابـهـمـ إـلـىـ طـلـبـتـهـمـ لـيـؤـمـنـ بـهـ وـلـيـتـبـعـهـ ؟ فـلـمـاـ أـعـطـوـهـ عـلـىـ ذـلـكـ

عـهـودـهـمـ وـمـوـاـثـيقـهـمـ ، قـامـ صـالـحـ ، عـلـيـهـ السـلـامـ ، إـلـىـ صـلـاتـهـ وـدـعـاـ اللـهـ ، عـزـ وـجـلـ ،

فـتـحـرـكـتـ تـلـكـ الصـخـرـةـ ثـمـ انـصـدـعـتـ عـنـ نـاقـةـ جـوـفـاءـ وـبـرـاءـ يـتـحـرـكـ جـنـينـهـاـ بـيـنـ جـنـبـيـهـاـ ، كـمـاـ

سـأـلـواـ ، فـعـنـدـ ذـلـكـ آـمـنـ رـئـيـسـ الـقـوـمـ وـهـوـ : " جـنـدـعـ بـنـ عـمـرـوـ " وـمـنـ كـانـ مـعـهـ عـلـىـ أـمـرـهـ

وـأـرـادـ بـقـيـةـ أـشـرـافـ ثـمـودـ أـنـ يـؤـمـنـواـ فـصـدـهـمـ " ذـؤـابـ بـنـ عـمـرـوـ بـنـ لـبـيدـ " " وـالـحـبـابـ " صـاحـبـ

أـوـثـانـهـمـ ، وـرـيـابـ بـنـ صـمـعـرـ بـنـ جـلـهـسـ ، وـكـانـ لـجـنـدـعـ بـنـ عـمـرـوـ بـنـ عـمـ يـقـالـ لـهـ : " شـهـابـ "

بـنـ خـلـيـفـةـ بـنـ مـحـلـةـ بـنـ لـبـيدـ بـنـ حـرـاسـ " ، وـكـانـ مـنـ أـشـرـافـ ثـمـودـ وـأـفـاضـلـهـاـ ، فـأـرـادـ أـنـ

يـسـلـمـ أـيـضـاـ فـنـهـاـ أـوـلـئـكـ الرـهـطـ ، فـأـطـاعـهـمـ ، فـقـالـ فـيـ ذـلـكـ رـجـلـ مـنـ مـؤـمـنـيـ ثـمـودـ ، يـقـالـ

لـهـ مـهـوـسـ بـنـ عـنـمـةـ بـنـ الدـمـيلـ ، رـحـمـهـ اللـهـ : وـكـانـ عـصـبـةـ مـنـ آلـ عـمـرـ إـلـىـ دـيـنـ النـبـيـ

دعوا شهابا عزيز ثمود كلهم جمیعافهم بأن يجیب فلو أجبابا لأصبح صالح فینا عزیزاوما
عدلوا بصحابهم ذؤابا ولكن الغواة من آل حجر تولوا بعد رشدهم ذئابا فأقامـت الناقة وفصیلـها
بعد ما وضعـته بين أظـهرهم مـدة ، تـشرـب مـاء بـئـرـها يـوـما ، وـتـدـعـه لـهـم يـوـما ، وـكـانـوا يـشـربـون
لـبـنـها يـوـم شـربـها ، يـحـتلـبـونـها فـيـمـلـئـونـ ماـشـاءـوا مـاـشـاءـوا مـاـشـاءـوا مـاـشـاءـوا
الـأـخـرى : (وـبـئـهـم أـنـ المـاءـ قـسـمـةـ بـيـنـهـمـ كـلـ شـرـبـ مـحـضـ) [الـقـمـرـ : 28] وـقـالـ تـعـالـى
: (هـذـهـ نـاقـةـ لـهـاـ شـرـبـ وـلـكـمـ شـرـبـ يـوـمـ مـعـلـومـ) [الشـعـرـاءـ : 155] وـكـانـتـ تـسـرحـ فـيـ بـعـضـ
تـلـكـ الـأـوـدـيـةـ تـرـدـ مـنـ فـجـ وـتـصـدـرـ مـنـ غـيرـهـ لـيـسـعـهـاـ ؛ـ لـأـنـهـ كـانـتـ تـتـضـلـعـ مـنـ المـاءـ ،ـ وـكـانـتـ -
عـلـىـ مـاـ ذـكـرـ - خـلـقـاـ هـائـلاـ وـمـنـظـراـ رـائـعاـ ،ـ إـذـاـ مـرـتـ بـأـنـعـامـهـمـ نـفـرـتـ مـنـهـاـ .ـ فـلـمـ طـالـ عـلـيـهـمـ
وـاشـتـدـ تـكـذـيـبـهـمـ لـصـالـحـ النـبـيـ ،ـ عـلـيـهـ السـلـامـ ،ـ عـزـمـواـ عـلـىـ قـتـلـهـاـ ،ـ لـيـسـتـأـثـرـواـ بـالـمـاءـ كـلـ يـوـمـ ،ـ
فـيـقـالـ :ـ إـنـهـمـ اـتـفـقـواـ كـلـهـمـ عـلـىـ قـتـلـهـاـ قـاتـادـةـ :ـ بـلـغـنـيـ أـنـ الـذـيـ قـتـلـ النـاقـةـ طـافـ عـلـيـهـمـ كـلـهـمـ
،ـ أـنـهـمـ رـاضـوـنـ بـقـتـلـهـاـ حـتـىـ عـلـىـ النـسـاءـ فـيـ خـدـورـهـنـ ،ـ وـعـلـىـ الصـبـيـانـ أـيـضاـقـلتـ :ـ وـهـذـاـ هوـ
الـظـاهـرـ ؛ـ لـأـنـ اللـهـ تـعـالـىـ يـقـولـ :ـ (ـ فـكـذـبـوـهـ فـعـقـرـوـهـ فـدـمـدـمـ عـلـيـهـمـ رـبـهـمـ بـذـنـبـهـمـ فـسـواـهـاـ)ـ [ـ]
الـشـمـسـ :ـ 14ـ]ـ وـقـالـ :ـ (ـ وـأـتـيـناـ ثـمـودـ النـاقـةـ مـبـصـرـةـ فـظـلـمـواـ بـهـاـ)ـ [ـ الـإـسـرـاءـ :ـ 59ـ]ـ وـقـالـ :ـ (ـ

فعقروا الناقة) فأسنده ذلك على مجموع القبيلة ، فدل على رضا جميعهم بذلك ، والله

أعلم . وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله ، وغيره من علماء التفسير في سبب

قتل الناقة : أن امرأة منهم يقال لها : " عنيزة ابنة غنم بن مجلز " وتكنى أم غنم كانت

عجزوا كافرة ، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح ، عليه السلام ، وكانت لها بنت

حسان ومال جزيل ، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود ، وامرأة أخرى يقال

لها : " صدوف بنت المحييا بن دهر بن المحييا " ذات حسب ومال وجمال ، وكانت تحت

رجل مسلم من ثمود ، ففارقته ، فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة ، فدعت "

صدوف " رجلاً يقال له : " الحباب " وعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة ، فأبى عليها .

فدعـت ابن عم لها يقال له : " مصـدع بن مـهرـجـ بنـ المـحـيـاـ " ، فأـجاـبـهاـ إـلـىـ ذـلـكـ - وـدـعـتـ

عنيـزةـ بـنـتـ غـنـمـ " قـدـارـ بـنـ سـالـفـ بـنـ جـنـدـعـ وـكـانـ رـجـلـ أحـمـرـ أـزـرـقـ قـصـيرـاـ ، يـزـعـمـونـ أـنـهـ

كان ولد زنية ، وأنه لم يكن من أئمه الذي ينسب إليه ، وهو سالف ، وإنما هو من رجل

يقال له : " صهيـادـ " ولكن ولد على فراش " سـالـفـ " ، وـقـالـتـ لـهـ : أـعـطـيـكـ أـيـ بـنـاتـيـ شـئـ

عـلـىـ أـنـ تـعـقـرـ النـاقـةـ ! فـعـنـدـ ذـلـكـ ، انـطـلـقـ " قـدـارـ بـنـ سـالـفـ " " وـمـصـدـعـ بـنـ مـهـرـجـ " ،

فاستفزا غواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نفر ، فصاروا تسعه رهط ، وهم الذين قال الله تعالى : (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهَطٍ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ) [النمل : 48]

وكانوا رؤساء في قومهم ، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها ، فطاواعتهم على ذلك ، فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها " قدار " في أصل صخرة على طريقها ، وكمن لها " مصدع " في أصل أخرى ، فمررت على " مصدع " فرمאה بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها وخرجت " أم غنم عنizه " ، وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها ، فسفرت عن وجهها لقدار وذمرته فشد على الناقة بالسيف ، فكسف عرقوبها ، فخرت ساقطة إلى الأرض ، ورغبت رغاة واحدة تحذر سقبها ، ثم طعن في لبتها فتحررها ، وانطلق سقبها - وهو فصيلها - حتى أتى جبلًا منيعًا ، فصعد أعلى صخرة فيه ورغا - فروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن سمع الحسن البصري أنه قال : يا رب أين أمي ؟ ويقال : إنه رغا ثلاث مرات . وإنه دخل في صخرة فغاب فيها ، ويقال : بل اتبعوه فعثروا مع أمه ، فالله أعلم فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة ، بلغ الخبر صالحًا ، عليه السلام ، فجاءهم وهو مجتمعون ، فلما رأى الناقة بكى وقال : (تمتعوا في داركم

ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) [هود : 65] وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء ، فلما

أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح عليه السلام وقالوا : إن كان صادقا

عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً أحقناه بناقه ! (قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم لنقولن

لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإننا لصادقون ومكرروا مكرراً ومكرنا مكرراً وهم لا يشعرون فانظر

كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا)

الآلية . [النمل : 49 - 52] فلما عزموا على ذلك ، وتواطئوا عليه ، وجاءوا من الليل

ليفتكوابني الله صالح ، أرسل الله ، سبحانه وتعالى ، وله العزة ولرسوله ، عليهم حجارة

فرضيختهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم ، وأصبح ثمود يوم الخميس ، وهو اليوم الأول من

أيام النظرة ، ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح ، عليه السلام ، وأصبحوا في اليوم

الثاني من أيام التأجيل ، وهو يوم الجمعة ، ووجوههم محمرة ، وأصبحوا في اليوم الثالث

من أيام المتابع وهو يوم السبت ، ووجوههم مسودة ، فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد

تحنطوا وقعدوا ينتظرون نسمة الله وعذابه ، عيادة بالله من ذلك ، لا يدركون ماذا يفعل بهم

، ولا كيف يأتيهم العذاب ؟ وقد أشرقت الشمس ، جاءتهم صيحة من السماء ورجمة

شديدة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح وزهرت النفوس في ساعة واحدة